

مزرعة الثعالب

(قصص)

تأليف

فوزي صالح

مؤسسة الرسالة


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مزرعة الثعالب

(قصص)

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م



مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف ٣١٩٠٣٩، ٨١٥١١٢ - ص.ب. ٧٤٦٠ برقياً، بيوشران

قال لي في موقف الأسى:

اليقظةُ في المرءِ الأساس، والنوم حاله

فعليكَ بالنائمِ مُدَّعِي اليقظة

فإنَّه الدَّاءُ استشرى في جسدِ الأُمَّة

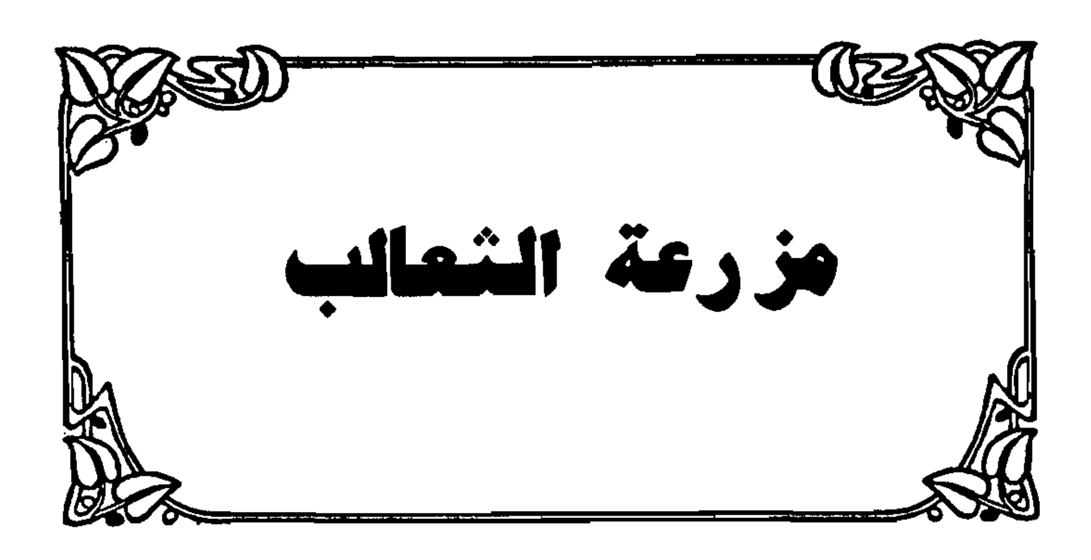
اضْرِبْهُ بكل مُوجعٍ حتَّى يفيق أو. . . . .

السوسُ من العَظْمِ اقْتَرَبْ

[قالها ثلاثا]

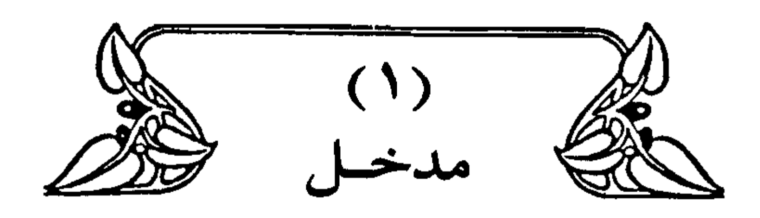
ثم غاب!!





مزرعة الثعالب





(١)
مدخل

أوصاني عالي الشأن قبل بدء استلامي العمل «ملطف حرارة» في مزرعة الثعالب الشهيرة أن أكون ثعلباً صغيراً حتى لا أؤكل، لأن هذا النوع من الحيوانات لا يأكل لحم بني جنسه إذا ما غضب عليه وإنما يقرصه قرصة خفيفة ثم يطيب خاطره بعد ذلك بمكافأة سخية تنم عن حب للنوع وأصالة.

ولأن نصائح الخنوع لا تجدي كثيراً مع ذوي الدم الحار من أمثالي فقد تجاهلت الوصية وتعاملت مع القطيع كإنسان.

بعد أيام من نكوصي عن فكرة التثعلب اعترض طريقي ذات نوبة عمل ليلية جارنا القديم زارع القثاء باكياً... قال يا ابن العم نحتت الثعالب قثائي، وأنت كما بلغني ملطف حرارة المزرعة المدلل ولا يرضيك غبني... فار الدم في شراييني - كيف يحدث هذا؟؟ اندفعت بهوج وبدون استئذان إلى جحر كبير الثعالب... ماذا حدث؟؟ حدث

وحـدث وحدث. . . إلى هـذه الدرجـة ؟؟!! وأكثـر. . . احتقن وجهه. هاج وماج. . . هدد وتوعد. . ضرب بيديه على طاولة في حجم جسارتي وإنفعالي هدأ بعد حين ووعد بتشكيل لجنة لمتابعة القضية وتحديـد المسئوليـة ومجازاة المتسبب بأردع ألوان العقاب.

شهر يمر تلو الشهر وقضية القثاء تملأ أعمدة مجلّات الحائط والصحف السيارة في دائرة المزرعـة. . . تفاءلت زاعماً أن اللجان تباشر عملها بدقة وروية حتى لا تظلم. . . فرحاً كنت لكن أرنبة فاتنـة همست في أذني ذات مقابلة شريفة قائلة أن كبير الثعالب راودها عن نفسها.

داخل جحره الخاص المنزوي بالطابق الثالث من مبنى إدارة المزرعة في حضرة الديك المعلم ذي الرأس الكبيرة والوجه المريح، وقالت أن الديك المعلم غمغم قائلاً: ما أطيبـك. . . سبحان الخـلّاق العظيم!! ولمـا تـأفّفت من الوضع المحرج ـ كما تقول ـ وعدها كبير الثعالب بوظيفـة مغرية لأرنبها العاطـل وبعلاوة أو تـرقية لهـا تحرك أنشف الغـدد اللعابيـة في عزِّ أحـر صيف، ولما استفسـرت عن المكان والزمان والمرتب همس والنتن المتصاعد من فيـه يقزز أقذر جرذان الأرض: ملطف حرارة خصوصي. . .، ولمـا أخبرتـه أن المكان مشغـول ولا يتحمل غيـر ملطف واحد. . . كشَّر عن أنياب صدئة وقال: الملطف القديم دَمُه

أمرٌّ من صبَّارة وكفاءته متدنِّية والشك كبير في أنه جاسوس عتيد لصلته القديمة بكبير مزرعة الذئـاب المجاورة وعينـا حبيبتي قدرتان من عسل مصفى ورضاها قانون.

. . . .

. . . .

كبير الثعالب قريب جداً من قلب وروح السلطة وغربال أسرارها الأمين، ورغم عدم أهليته عين عضواً عامـلاً في المجلس الأعلى لمزارع الثعالب. كلمتـه أهم من قانـون محافظ الإقليم. . .

دخله من هدايا المنتفعين يعادل دخل المزرعة في عدة سنوات وبسبب هذه المفارقة عين بمعرفته ثعلباً سميناً تولَّى تربيته وتعليمه أميناً على خزائن عموم المزرعة. . .

تبرَّأت منه جماعة ذات طابع اصـلاحي (كان عضـواً فيها) لتواطؤه مع جهات مناهضة لنشاطها وإن ظل صديقاً حميماً لمعظم أفرادها. . .

يُقال أنه اختطف أحد مـوظفيه من بين أفـراخه ليـلاً لرفضه المشاركة في عملية ابتزاز خطيرة وهدَّده بالتصفيـة الجسدية إذا ما ظل يركب رأسه ولن يعرف الذباب الأزرق لجثته طريق (جُرَّه).

يقول العارفون ببواطن الأمور أن كبيراً جداً في الجهات العليا عليه له دين قديم فقـد أواه والده مـدرس الحساب

ومأذون الناحية أثناء هروبه من حكم صدر ضده أيام الصعلكة في قضية اغتيال شهيرة.

لكن أرنبتي الفاتنة أبت واستعصت ورفضت المبادرة.

.. ..

نمى إلى علمي أن كبير الثعالب أَحَالَ القضية إلى ناحت القثاء الأشهر لتقديم المشورة وتصفية الجو فأشار بعد دراسة مستفيضة وبعد أخذ رأي عشرات اللجان أن الشكوى كيدية، وأنه كاقتراح اللجان يرى أن يعاقب الشاكي الكاذب مزعج الأمن ومعكر مزاج الكبير بدفع غرامة مقدارها ثمن محصول عشر سنوات مقدماً.

نمى إلى علمي كذلك أنهم قبلوا استقالتي غير المسببة لأنني ـ باعترافي ـ عاجز عن متابعة المتغيرات والطفرات السريعة في تكنولوجيا التلطيف والترويح، ورحم الله امرءاً عرف قدر نفسه...

.. ..

أرنبتي الفاتنة خرجت بعد انتهاء إحدى نوبات عملها الليلية ولم تعد، بحثوا عنها طويلاً وأبلغوا كل الجهات المعنية بالأمن الخاص والعام...

أرنبة عجوز مسئولة مصمصت شفتيها عدة مرات وقالت: لا فائدة...

وعندما استفسرت منها الأرنبات الأقل مسئولية قالت:

الجميلة ألقت بنفسها في البحر بعد أن أحست بتحركات غيـر عاديـة في أحشائهـا ومن المؤكد أن لحمهـا التهمتـه أسماكه المتوحشة.

غير أن ثعلباً معمماً يقرأ الكف ويفقه في علم النجوم قلَّب أوراقه طويلاً ثم أدلى بتصريح مبهم لم يفهمه أحد.

أما الحاقدون فقد أشاعوا في الأوساط الدنيا أن الديك المعلم استأثرهـا لنفسه ـ بـرضاهـا ـ بعد أن استـأذن جهة أقوى، وقد شاهدت بنفسي كبير الثعالب في الأيـام التي تلت ذلك الاختفاء المريب يروح ويجيء دون حماية في طرقات المزرعة ساهماً حزيناً لا يهتم بشيء البتَّـة. يقول العارفون ـ والمفسرون للظواهر الغريبة أنه تصوَّف بعد زيارة خاطفة لمكان غير معلوم.

.. ..

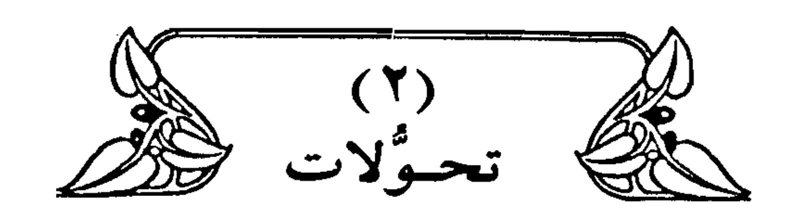
.. ..

يوم المزرعة كألف يوم مما يعد الناس لجسامة أحداثه وغرابتها، ومزرعة الثعالب كانت في الأصل مؤسسة خيرية بناها ثري شهير أدركه الورع فجأة في أواخر أيامه فأراد أن يختمها بصدقة جاريـة تجب ما قبلهـا وترجِّـح كفَّته يـوم العرض الأكبر إلا أنها تحولت إلى عكس ما اشتهى لحظة أن تولى إدارتها كبير الثعالب ـ وقتها كان ثعلباً صغيراً ـ يقول العارفون أن كبيرها السـابق ارتكب في حق الإدارة العليا

جرماً لا يغتفر، إذْ أنه رفض دفع مكوس طلبها زائرون ذوو حيثية خاصة، فكانت هذه هي القشَّة التي ورد ذكرها في المثل الشعبي المعروف، ففي اليوم التالي اكتشف أن اليافطة المعلَّقة على المدخل رُفعت، ولاحظ أن البوَّاب تجاهله ولم يرفع له يده كالعادة محيياً، وعندما دخل مكتبه فوجىء بثعلب أشهب يجلس عليه محرِّكاً ذيله الطويل يمنة ويسرة، تلفَّت حوله مندهشاً وسقط ميِّتاً.

يضيف العارفون أن كل ذلك كان مخططاً له من قبل إذ أن الفقيد كان مصاباً بأزمة قلبية حادة، وزيادة في حبك فصول القصة زار أسرته «الثعلب الأشهب» معزياً، ووعدهم ببذل كل جهده لدى الإدارة العليا لتعيين بكرهم السمين أميناً على عمومِ خزائن المؤسسة إكراماً لذكرى الراحل العزيز، كما تكفَّل ببناء مزار يليق بمقامه.

بعد ذلك ازدحم طابور الوافدين على المزرعة من كل لون وفج، يدخلونها خماصاً ويخرجون بطاناً وعلى وجوههم المنتفخة آثار النعمة...



(٢)
تحـوُّلات

أ ـ الثعلب السمين:

الثعلب السمين ذو الـذيل السميـك الذي كـان فيمـا مضى ممتدّاً إلى جحر كبير الثعالب أخذ يعوي عواء مُتَّصِلاً حتى حسبه البعض هذياناً، ومن استطالته وإلحـاحه قـال بعض طيبي القلب:

وما ذنبه؟ ورَّطـه الكبير في المنصب الخـطير وتـركه يغرق. . .

في البدء هز ذيله بعجب وقال: أنا هنا تحميني عمامة أبي المعلَّقة على جدار حجرة الاستقبال ومزاره الذي تكفَّل الكبير ببنائه وذركشته ليروح فيه عن نفسه أربعين ليلة كل عام. . .

في البدء أيضاً وطَّد الصلة بناحت القثاء الأشهر الذي تولَّى امداده بخريطة تضاريس المزرعة السِّريَّة، ورغم تمتُّعه بحرية الحركة إلا أنه لم يتجاسر في البداية على الاقتراب من جحر كبير الثعالب الخالي معظم أيام العام.

دعاه الكبير ذات ليلة ضبابية للاجتماع به فاقشعر بدنه

المترهل ووقف شعر رأسه الأجعد.. قال ناحت القثاء مباركاً: إنها الحظوة التي ما بعدها حظوة مبدأ الولوج في عوالم القرب والرضى... اخلع نعليك وتقدَّم...

استبشر رغم تجمد دمه وطرق الباب بوجل... تراجع بضع خطوات... أرهف السمع الحديد للقهقهات الغريبة المنبعثة من الداخل... انفتح الباب وهو على حالته فجأة فازدادت القهقهات ارتفاعاً.

وكانت البداية...

في المرة التالية كان أكثر تماسكاً إذ تعلم النكات كُلَّها وأجاد التحكُّم في أحباله الصوتية وعموده الفقري... قال الكبير وهو يربت على لحمه الطري بمودة نادرة الحدوث:

إن من يدخله خالصاً لوجهي له ما لا بطن أكلت ولا خطر على جيب أحد.

خفض عينيه وقال:

ـ وما جزاء من يقترف دون علم يعصمه ذنباً؟؟

قال:

نحن أدرى بكم من نفوسكم وإن شئنا نذيقكم من صنف أعمالكم وجعاً.

أقعى على اليتيه ورفع رجليه الأماميتين هاتفاً:

لكم البقاء ونحن في ركابكم من الخادمين...

ب ـ الثعلب الأصلع:

على مدخل المزرعة الرئيسي يجلس ثعلب أصلع الرأس عفي البدن، قيل أنه كان أشعث أغبر غير معروف الهوية... حلَّ على المزرعة أول الطوفان وفى يمينه قسماً سنيّاً غير معروف المصدر فأبَّره الكبير وقرَّبه زلفى... اشترى المدية ثم المسدس وكثيراً ما كان يرفعه في أوجه المشاكسين من روَّاد المزرعة رغم قوانين الطوارىء جهراً.

أما تفاصيل حياته فلم يستطع أحد من النباشين التوصُّل إليها... كل ما في الأمر أنه شُوهد بعد شهور قليلة وهو يفتتح محلاً لبيع الفاكهة، وجاء بأنثى بالغة وطفلين، أجلسهم فيه وتفرَّغ هو لأمن المزرعة...

من هم ومن أين جاءوا؟؟

لا أحد يعرف!!

*** من أقواله:**

ـ اصطفاني الكبير رغم ضعتي فوضعت تحت أرجله لحمي ودمي ـ مبدأي ومنتهاي.

ـ لا خوف بعد اليوم ولا مخمصة.

ـ إن مت ادفنوني تحت أي ثرى تطئه نعال سيدي.

.. ..

.. ..

ج ـ ناحت القثاء الأشهر:

بين كبار منتفعي المزرعة وحده الذي لم تظهر عليه آثار النعمة ولين العيش المتمرغ فيه حدَّ التشبُّع... دخل هو الآخر المزرعة بخطاب توصية ممهور بدماء أبيه المقتول ـ عضو الجماعة ذات الطابع الإصلاحي ـ وظل يعافر زمناً حتى استحق عن جدارة الحصول على لقب «ناحت القثاء الأشهر»، واللقب في حد ذاته لا يعني شيئاً محدداً ـ كما يقول ـ إذ أنه جاء عفواً على لسان الكبير في جلسة مزاح خاصة جداً... لكن بعض النباشين المتخصصين لم ترق لهم هذه الرواية فبحثوا طويلاً حتى توصلوا إلى أصل التسمية الغريبة.

يقول النباشون أن حقلاً كبيراً مجاوراً للمزرعة زُرع قثاءً من عدة سنوات، ونجحت الزرعة نجاحاً كبيراً فهَلَّ التجار عليها من كل صوب (إلى هنا والحكاية عادية جداً) بعد أيام أكتُشف اختفاء القثاء!! وبالبحث والتحري أمكن التوصل إلى شهود عيان رأوا ناحت القثاء (لم يكن قد حملها بعد) ومعه غرباء في الحقل بعد منتصف ليلة الاختفاء فظنوا أنه اشتراه.

ذهب صاحب الحقل إلى كبير الثعالب شاكياً فطيَّب خاطره ووعده بالنظر في الأمر (ورد ذكر حكاية مشابهة في مدخل القصة لكنها غيرها، إذ أن حكاية جارنا زارع القثاء

حدثت بعد أن استمرأ ناحت القثاء العلمية) ولما انصرف الرجل استدعى الكبير ربيبه وعنّفه أمام الحضور وتوعّده بالعقاب الشديد إن عاد.

هناك رواية ثانية تقول أنه خلع حذاءه، وقذفه في وجهه، ورواية ثالثة تؤيد الروايتين وتضيف أن الكبير أمر بتجهيز صالة الاجتماعات فوراً، وفي الاجتماع المغلق الذي ضم الخلصاء من أصحاب الحظوة قال وهو يبتسم ابتسامة عريضة: أريد ناحت القثاء.

استقبل الحاضرون اللقب بالضرب على الطاولة والدق بالأرجل على أرضية الصالة معربين عن خفة ظل كبيرهم وألمعيته، ولما جيء به حزيناً منكسراً ارتمى على أقدامه وقبّل حذاءه طالباً المغفرة... خبط الكبير على ظهره بجدية وقال: الآن اطمأن قلبي عليك، أصبحت ثعلباً يعتمد عليه... من اللحظة أنت ناحت القثاء، بل ناحت القثاء الأشهر.

من هنا كما يقول النباشون جاء اللقب.

.. ..

.. ..

برتابة شديدة يمضي الزمن
ويبدو في الأفق ملامح أيام أخرى تتخلق ببطء
أيام تختلط فيها الأشياء حسنها بقبيحها

أولى هذه الملامح التي كسرت ظهر كبير الثعالب فقده المقعد الدائم ـ كما كان يظن ـ بالمجلس الأعلى . . . وجاء من يخبره أن الإجراء مجرد ذر للرماد في العيون الحاقدة وأن مكانه في القلب دائماً . . .

أما الثانية فهي الكشف (المُتَعَمَّدُ) عن مخالفات مالية وإدارية جسيمة في سجلات وفواتير المزرعة تصل إلى عدة ملايين .

(٣)
مقتطفات من جرائد...
معارضة وغير معارضة
بخصوص القضية

جريدة الناس ـ مكتبة مدينة طلبنتا:

الكشف عن مخالفات مالية وإدارية بمؤسسة.........: النيابة تأمر بالتحقيق.

جريدة الشعب:

نيابة طلبنتا تكتشف تورط مدير عام المؤسسة وسكرتيرته وشقيقه وابن عمه المدير الإداري وسائقه الخاص في القضية.

جريدة الحرية:

نيابة طلبنتا تأمر بحبس مدير عام مؤسسة... و... و... أربعة أيام على ذمة التحقيق.

تكذيب من جريدة شبه رسمية على صفحة كاملة:

جرياً على عادة صحف المعارضة في تصيد الأخبار الملفقة وتضخيمها لأحقاد وثارات قديمة، قامت جرائد

الشعب والناس والحرية أخيراً بنشر أخبار كاذبة عن الدكتور طاهر مصلح مدير عام مؤسسة... ووكيل وزارة...، والدكتور كما عرفناه عن قرب شخصية اجتماعية وبرلمانية ناجحة ومحترمة على جميع الأصعدة، وعالم فذ في مهنته، وله ماض مشرف في خدمة الوطن، وانطلاقاً من موقفنا الثابت والحازم في التصدي لهذه الفئات الزئبقية الحمراء (مصطلح ظهر أو بمعنى أدق استُخدم بكثرة في السنوات العشر الأخيرة وإن كان اللون قد استخدم ولكن بدرجته الأهدأ في مقالة للأستاذ «العقّاد» يرد فيها على قارىء مشاغب استثاره وكان عنوانها على ما أذكر «قرمزي ورب الكعبة»، وهذا المصطلح بدرجات لونه المختلفة يرمي به كل مدافع عن حقوق الأغلبية المسحوقة) هذه الفئات الموتورة التي تشكك في نزاهة الشرفاء من أبناء الوطن مستغلة جو الحرية والديموقراطية أسوأ استغلال، فإننا نؤكد أن الدكتور ليست له أدنى علاقة بهذه القضية المفتعلة ولم يحدث كما ادُّعي أن أمرت نيابة طلبتنا الموقرة بحبسه، ولكنها استكثرت على الرجل إكمال دوره الوطني بنزاهة، ولعلنا نتذكر الضجة التي أحدثتها أثر اختياره عضواً في المجلس الأعلى القومي، ولأننا ندرك أساساً الأسباب الدافعة لها وهي أسباب نفعية لا علاقة لها بالصالح العالم فإننا لا نقر هذه الطريقة البشعة في التشهير بخلق الله هكذا

جزافاً بـدون أدلة قـوية دامغـة، وقد وضعنـا نصب أعيننا دحض هذه الدعاوي الفاسدة حتى لا يقع الناس بحسن نية في هذا المنزلق الخطر المزعزع لأمن الوطن واستقراره في هذه الأونة الحرجة التي يمر بها والتي تحتم على الجميع التكاتف ونبذ الخلافات واضعين في الاعتبار وبأولوية مطلقة أن الوطن قبل أي شيء وأن حرية المواطن ـ أي مواطن ـ هي حريتنا جميعاً، ومن هذا المنطلق وحتى نكون جادين في دعـوتنا تلك تـوجه مـراسلنا بمـدينة طلبتـا إلى عيادة الدكتور طاهر مصلح الواقعة وسط الشارع التجاري الرئيسي بالمدينة لإجراء مقابلة جريئة معه وإليكم نص الحوار:

(صورة للدكتور على ثلاثة أعمدة وأسفلها ببنط صغير بطاقته الشخصية وفقرات من ملف خدمته الـوظيفي وبيان بشهاداته العلمية)

أثـاث عيادة الـدكتور طـاهر مصلح بسيط ومتـواضـع للغـاية. . . عشـرة كراسي (فـوتي) ذات لون قـرمزي في الحجرة الأولى ومثلها في الثانية ولكن بلون فستقي. . .

الحجرة الثالثة بها ثلاثون مقعداً خشبياً أُعدَّت لفقراء الناس الذين يعالجون كما يقول الممرض مجانـاً. أرضية العيـادة مع البـاركيـه. . . على الجـدران ملصقـات طبيـة وشهادات تقدير وصـور لمسئولين كبار مع الدكتور وقصائد تقريظ من مرضى. . .

استقبلني الدكتور على باب حجرته المكتظة بعدد كبير من الأجهزة الحديثة. . . ميكروسكوبات وعدسات ولمبات إضاءة بأحجام وأشكال مختلفة - استقبالاً حاراً رغم حضوري بدون سابق موعد. . . أخذني من يدي وأزاح ستارة على الجدار المقابل لمكتبه فظهرت حجرة رحبة بها أثاث فخم للغاية قال الدكتور أنها للخاصة من كبار الزوار. . . جلسنا نتحدث في بعض الأمور العامة، وبعد أن تناولنا الشاي والفطائر الطلبنتية الشهيرة سألته:

- هل يتفضل الدكتور بالتحدث عن القضية التي أثيرت في الآونة الأخيرة؟

ابتسم بمرارة وقال:

أنت تعرف أن للناجحين من الناس أعداء وحاقدين، ومن يوم أن تسلمت المؤسسة لكفاءتي وآلاف النصال توجه نحوي حتى تكسرت النصال على النصال كما يقول الشاعر الحكيم، ولا أعرف لماذا يفعلون ذلك؟! وطالما سألت نفسي: هل هناك خطأ ما في خطتنا؟؟ وبحثت عن موضع هذا الخطأ - إذا افترضنا وجوده أساساً - فرأيت أنها أشياء تافهة لا تستحق الوقوف عندها لأنها موجودة في مؤسسات أخرى كثيرة، فلماذا يقفون لمؤسستي بالمرصاد دون سواها؟ ولماذا هذا الموقف العدائي المشوه لأهدافنا النبيلة المعروفة على صعيد هيئات علمية عالمية؟؟ في اعتقادي

أن الموقف برمته موجه ضدي شخصياً وسأحتفظ لنفسي بحق الرد في الوقت المناسب وأزعم أنه قريب جداً يومها سيعلمون أي منقلب ينقلبون... سأضرب لك على ما أسموها انحرافات مثلاً:

موظف صغير أخذ عمولة تافهة من مريض مستعجل نظير إدخاله قبل دوره ـ ماذا في ذلك؟

موظف مجتهد استطاع بمجهوده الشخصي شراء أدوات للمؤسسة بسعر منخفض ألا يكافىء على اجتهاده؟؟ هل أخطأنا لأننا نعدل؟!!

ـ ولكنه زجوا باسم سيادتكم في القضية يقولون كلاماً مختلفاً...

أما وأنهم زجوا باسمي فلهذه حكاية... حدث أن كُلِّفت رسمياً بالسفر إلى اليابان للتعاقد على شراء أجهزة خاصة بالمؤسسة، وأنا بالطبع تربطني علاقات وثيقة وقديمة لا مجال الآن لذكر تفاصيلها برجال الصناعة اليابانيين، وفوجئت بعد العودة أنهم أرسلوا باسمي سيارة صغيرة (هوندا) كهدية... ماذا أفعل؟ هل أردها لهم؟؟ علماً بأنني اشتريت الأجهزة بنصف الثمن وبتسهيلات قَلَّ أن تحدث... قل لي بربك هل أخطأت؟؟

ـ وماذا عن حكاية خطف الموظف؟؟

هل هذا يعقل!! خطف في عصر سيادة القانون والحريات!!؟ إشاعات وافتراءات الكل يعرف أن موظفي المؤسسة أبنائي وإخوتي أزورهم في بيوتهم ويزوروني لا كلفة بيننا ولا حجاب، وحدث ذات يوم أن انقطع أحد أبنائي عن العمل... سألت عنه فقال المدير الإداري إنه غاضب لأن منحته الشهرية أقل من زملائه منتهى الديمقراطية... رجل أحس بغبنٍ واقع عليه فعبر عن استيائه بطريقته الخاصة وإن كانت خاطئة... أحضرته وهيَّأت له حجرة خاصة حتى تستريح نفسيته ثم أرسلته بعد ذلك إلى دورة إدارية كلفتنا كثيراً ليعرف حقوقه وواجباته... لا خطف ولا يحزنون... مجرد توعية تتبعها أكثر الدول تطوراً لكسر أو تخفيف حدة الصدام بين العاملين والإدارة... سأقول لك خبراً لم يخرج من فمي لأحد قبلك: ظهر أثناء الجرد الأخير أن عهدة أحد أمناء المخازن بها عجز كبير وأمين المخزن هذا في عنقه تسعة أبناء. ماذا أفعل؟ هل أستدعي الشرطة وأدخله السجن؟ أبداً لم يحدث هذا... عنَّفته ونقلته من المخازن حماية له من نفسه ثم سددت العجز من مالي الخاص وانتهى الأمر، لكن الولد لم يحفظ الجميل ولم يستر نفسه وأشاع أنني وراء كل هذا بقصد توريطه... لماذا يا بني؟؟ بكى... أخذته معي في سيارتي وأرحته تماماً حتى باح بدون أية

ضغوط لي بكل ملابسات الموقف وهو في الحقيقة موقف محزن لا داعي لإذاعته الآن، وهنا لا بد من الحزم... أصدرت قراراً صورياً برفضه... قلت صورياً لمجرد تخويفه وردعه لأنني في النهاية سأعيده ليس من أجله وإنما من أجل الصغار الذين لا ذنب لهم.

* والمخالفات المالية؟؟

«والنفس كالطفل إن شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم...»

قل لي يا أخي ماذا نفعل في تلك النفوس المريضة؟ ثم هل نحن في دار إصلاحية لنعالج مرضى النفوس؟! المؤسسة التي أتشرف بإدارتها رغم أنني حاولت مراراً وتكراراً تركها والاكتفاء بمنصبي الأعلى في الهيئة العليا المشرفة عليها بُعْداً عن المشكلات إلَّا أنهم رفضوا رفضاً قاطعاً بعد الانجازات المشرِّفة التي قمت بها... قلت أن المؤسسة تحكمها قوانين إدارية، وهي منقسمة بحكم تخصصاتها العديدة إلى أقسام صغيرة... على رأس كل قسم مدير مسئول، والمفروض عند حدوث أية تجاوزات أن يحاسب المتجاوز مع رئيسه المباشر لتقصيره... قالوا فواتير مزورة ومستندات صرف وهمية وسرقات أجهزة وأدوية وخلافه... دوري في هذه الحالة أن آمر بتكوين لجنة جرد مكونة من قانوني ومحاسب وفني وأمين مخزن، وبعد انتهاء

اللجنة من عملها أرفع تقريرها للنيابة الإدارية إن استدعى الأمر ذلك، ونحن لم نقصر فاللجنة كانت تعمل في سرية إلى أن حدثت الضجة فاضطررنا لتجميدها في انتظار أوامر عليا، والمتهم كبدهية قانونية بريء حتى تثبت إدانته، لكنهم سامحهم الله أقاموا الدنيا قبل أن نكمل دورنا. . . وقرار تكوين اللجنة ومحاضرة الجرد موجودة لمن يحب الاطلاع. . . هذه كل الحكاية. . .

تكذيب للتكذيب نشر في جريدة الشعب:

﴿فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾ صدق الله العظيم. . .

تورطت جريدة الـ. . . في نشر تكذيب للقضية التي أثرناها في الأسابيع الماضية تلك القضية التي شغلت الرأي العام في البلاد من أقصاها إلى أدناها، وقد كان من المستغرب في البداية أن يُقْدِمَ الدكتور على فعل جرائم يمجها الضمير قبل القانون وهو على ما عليه من علم وثقافة ومنصب خصوصاً وأنه خرج على الناس من خلال الشاشة الصغيرة في نفس الفترة بوجهه البشوش الطيب مقدماً ثلاثين حلقة دينية على امتداد الشهر الفضيل داعياً إلى التقوى والصلاح ونبذ الظلم و. . . ولم نكن ندري مثل الكثيرين أن السم الزعاف في الدسم، وكعادتنا دائماً فإننا

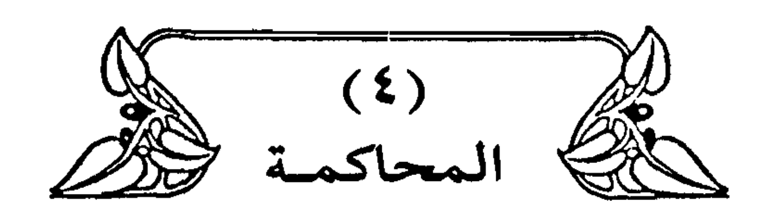
لن نرد على الشتائم بمثلها لأن أخلاقنا وأخلاقيات المهنة المتعارف عليها تمنعنا من اقتراف ذلك، ولكننا سنضع بين أيدي المهمومين الغيورين على مستقبل البلاد صورة (طبق الأصل) من قرار النيابة وعريضة الاتهام ـ بغض النظر عن تطبيقه من عدمه ـ حتى يعلموا أنه لا يصح إلا الصحيح، وأننا لا نرمي التهم جزافاً بدون دليل، علماً أنه بين أيدينا الآن أدلة دامغة أخرى وشهادات ثقات تعضد ما ذهبنا إليه وما تبنيناه إحقاقاً للحق، وسيعلم الذين كذبوا وخانوا الأمانة أي منقلب ينقلبون...

(صورة من عريضة الاتهام وقرار النيابة)

.. ..

.. ..

..



(٤)
المحاكمة

منظر عام:

قاعة محكمة فسيحة مكتظة بخلق تتباين أزياؤهم... قفص حديدي على اليمين يمثل فيه نفر ذوو وجوه ثعلبية هم:

- عاثر راضي (الثعلب السمين)
- مفيد خادم (الثعلب الأصلع)
- نظيف شفيف (أقلهم سمنة) (ناحت القثاء)

«هذه الأسماء مأخوذة من محضر الجلسة، وهي المرة الأولى التي تعرف فيها أسماؤهم الحقيقية... إذ أنهم كانوا ينادون بأسمائهم الحركية».

على المنصة الرئيسية ثلاثة قضاة بلباسهم المميز... على الجانب الأيسر يجلس ممثل الادعاء بملابسه الرسمية ـ بذة كاملة ووشاح ـ مقابل المنصة طاولة خشبية يظهر خلفها أربعة من أشهر محامي البلد... العرق يتفصد من الجباه بغزارة رغم وجود أكثر من عشر مراوح موزعة على جدران القاعة.

(ألتُقط المنظر بعد الافتتاح التقليدي للجلسة مباشرة. . .)

المشهد الأول والأخير:

ينادي على المتهم الأول ـ طاهر اليدين مصلح ـ، فيقفز محامي متأنق من الأربعة الكبار بحركة تمثيلية. . .

يتجه باستدارة محسوبة إلى المنصة:

شريف عبدالقادر المحامي عن موكلي الدكتور طاهر. . .

أين المتهم؟؟ يقول الرئيس وهو ينظر بدهشة مفتعلة ناحية القفص. . . يبتسم المحامي نصف ابتسامة ويقول: موكلي محتجز بإذن من النيابة في المستشفى لإصابته بأزمة قلبية حادة تمنعه من الحضور. . .

يقدم للرئيس ملفاً أنيقاً. . . يتناوله وينظر فيه بقرف. . . يهز رأسه ويطلب منه الجلوس. . .

ينادي على ممثل الادعاء فيصلح هندامه ثم ينهض:

سيدي الرئيس. . .

السادة. . .

هذه هي قضية الموسم التي غطَّت على كل القضايا لأنها تمس أمن وحرية المواطنين واقتصاد الوطن، ولهذا أجدني مضطراً إلى عرض تفاصيل القضية من البداية

(يقاطعه الرئيس: لا داعي للتفاصيل يا أستاذ... ادخل في لب الموضوع مباشرة) يتجهم وجه ممثل الادعاء... يصمت للحظات ثم يتابع: فقد دأب المتهم الأول منذ توليه إدارة مؤسسة... على التلاعب في أموالها بطرق شيطانية بواسطة المتهمين الآخرين الماثلين أمام عدالتكم معتمداً على صلاته الوطيدة بكبار رجالات العهد... (جلبة في الجانب الأيمن من القاعة فتسقط بقية العبارة) وكثيراً ما كان يصرح بذلك على مسمع من الناس ـ يفرد بعض الأوراق ـ متخذاً من ذلك تكأة للضغط على الآخرين وقهرهم، بل وصلت به الجرأة وعدم المسئولية إلى أنه قام عامداً متعمداً باختطاف موظف مدني من بيته فجر السابع من... ـ يقاطعه الرئيس ثانية: قلنا ادخل في لب الموضوع يا أستاذ ـ ورفت أربعة موظفين بطريقة تعسفية وغير قانونية وذلك بشطب توقيعاتهم من كشوف الحضور والانصراف عشرين يوماً على التوالي لأنهم رفضوا الانصياع لنزواته وانحرافاته التي لا يمكن أن يقبلها مواطن شريف محب لوطنه ـ يخبط الرئيس المطرقة على المنصة ويمط صوته بطريقة ملفتة: يا أستـ.... اذ ـ وكل المستندات التي تثبت هذه الوقائع بين أيديكم، ولذا فإنني أطالب بتوقيع أقسى عقوبة على المتهمين دون تأخذكم بهم رأفة استناداً إلى المادة رقم... من قانون العقوبات لسنة... حتى يكونوا عبرة لغيرهم من

ممن تسول لهم أنفسهم المريضة اقتراف مثل هذه الجرائم البشعة، ودمتم.

(تصفيق حاد في الجانب الأيسر من القاعة ومتقطع في الوسط... أما الجالسون على الجانب الأيمن فيبدو على وجوههم الوجوم وإمارات عدم الرضى).

يسأل الرئيس بنبرة ساخرة:

هل لدى الادعاء شهود؟؟؟

ينادي ممثل الادعاء على الشاهد الأول: منصور الدغيدي ـ زارع القثاء... يقفز المحامي الثاني ويتوجه إلى المنصة:

فراج شفيع المحامي عن موكلي الدكتور... يقدم ورقة للرئيس فينظر فيها بتمعن... يعتدل ثم يلتفت إلى ممثل الادعاء قائلاً بتهكم:

هل لدى الادعاء شهود غير هؤلاء؟؟ (يشير باصبعه إلى الورقة المفرودة أمامه) ويفطن ممثل الادعاء فيلوي شفتيه قرفاً ويجلس صامتاً...

(ترفع الجلسة لدقائق ثم تعود للانعقاد...)

يميل الرئيس على عضو اليمين ويسر في أذنه ببعض الكلمات، ثم عضو اليسار الذي يهز رأسه عدة مرات... يخبط بالمطرقة على المنصة ثلاث خبطات متقطعة ثم يتلو من ورقة أمامه:

نظراً لأن شهود الادعاء طرف في القضية أصلاَ قررنا توخياً للعـدل والحق نحن هيئة المحكمـة تأجيـل القضية للموسم القضائي القادم حتى يتسنّى للادعاء التقدُّم بشهود آخرين، كما قررنا الإفراج عن المتهم الأول بضمان وظيفته

حدث هذا بعد صدور قرار رسمي باحالته للتقاعد)

رُفعت الجلسة......

(تُسمع دقات طبـل بلدي وزغاريـد وهتافـات مبهمة خارج القاعة)

* * *



(٥)
خاتمـة ممتـدّة



تمر الأيام طويلة متعرجة صحراوية في وقعها رغم تغيُّر الفصـول، ويعلِّق فتى شَابَ قبـل الأوان في جلسة مـزاح ممتدة بطول سنوات القهر الحبلى بالمفاجئات غير السارة: كلها سواء. . .

ثم يمتص بنهم دخان أرجيلته التي لا يعرف من أين سيـدفع حسـابها ويكمـل مقهقهاً: كلهـا سواء وكله على النوته. . .

وتتـراكم بالمقـابل طبقـات من نوعيـة مختلفة يتصـل أساسها بطريقة أو بأخرى بالعرق المتصبب من جباه جوعى تتمسح برؤى لبنية وخمر وأنهار من عسل لا ينضب، ويدلي «الليثي» بدلوه في البئر السحيقة على لسان الجميل ابنـه قائلًا: يأتي يوم ينتقل فيه مثلث برموداً إلى قلوب الناس، ولكنه سيتحول إلى مربع يسع جميع الكتل والأبعاد. . .
وتزعق أم الجميل الشمطاء في وحيدها: انكشح عن وجهي لا رحمه الله، لم يكن يحسن إلا نسج الكلام. . .

ويجلس الدكتور طاهر اليدين مصلح (أو كبير الثعالب كما اتفق) في عيادته مع زوَّار المرحلة الجديدة المهنئين بالسلامة. . . يمسح رأسه الأصلع بمنديله الحريري ويتوجه إليهم بحديث ودي للغاية وبنبرة أشبه بالهمس هو الذي لم يكن يسمع إلا زاعقاً أو لاعناً أو مهدداً خلق الله، ولأن ذاكرة الناس طالها الصدأ من زمن بعيد ولم يعد يعلق فيها إلا اليومى المُلِحّ، فقد أدلى دون أن يخامره أدنى حرج بتصريحه الغريب:

ـ حان أوان التفرغ للدعوة يا إخوة. . .

ـ لكنك كنت متفرغاً لها من الأساس يا دكتور. . .

ـ أي نعم، ولكن واجباتي الرسمية الكثيرة كانت حملاً ثقيلاً يعوق حركتي الحمد لله الذي انتشلني منها أخيراً. . .

ـ أنت مهيَّأ لذلك الواجب فعلاً يا دكتور، لقد كان برنامجك التلفزيوني في رمضان الماضي من أنجح البرامج قاطبة. . . تصور أن أبنائي ما زالوا يحفظون حلقاته الثلاثين عن ظهر قلب رغم أنهم نسوا فوازير هذا العام!! (البرنامج المشار إليه كان من ثمانية أعوام، وهذا الخلط المرضي يدخل في نطاق صدأ الذاكرة السابق ذكره. . .).

ـ الحمد لله الذي وفقني في هذا البرنامج غاية التوفيق. . . كانت الكلمات تخرج من قلبي مباشرة دون

استعداد مسبق ودون أدنى خوف من الكاميرات أو الإضاءات القوية المسلطة عليَّ لدرجة أنهم طلبوا مني أن أقدِّم حديثاً أسبوعياً على غرار حديث صديقي العارف التقي، وأعطيتهم وعداً بالتفكير في العرض (حدثت ضجة في تلك الآونة من رجال دين وأطباء وعلماء مخلصين بسبب الأخطاء الجسيمة التي وردت على لسان الدكتور أقلها من ناحية الأهمية أخطاء اللغة) ثم حلت المحنة فنسيت الوعد، والمحنة يا إخوة تكشف نوعية العناصر. . . هل تتخيلون أن زوجة زميلي وصديقي (. . . . . .) وأنتم تعلمون كم أحسنت إليه تتصل بزوجتي في عز المعمعة وتسمعها كلاماً غير لائق ثم تزغرد فرحة بما يحدث لي؟؟!! هل تعرفون من أين أتى بتكاليف بناء وتجهيز مستشفاه التخصصي الضخم؟؟ من راتبه أم من دخل العيادة؟ أبداً. . . كل ذلك من مكافآت المؤسسة. . . لم أكن أبخل عليه بشيء، وفلان وفلان وفلان. . . كلهم وقفوا ضدي وحاولوا النيل من سمعتي ظلماً وكذباً، ما أقسى طعنات الأصدقاء يا إخوة. . . لكن الله لا يتخلى عن عباده المخلصين، إذ قبل الإفراج بليلة نمت بعد صلاة العشاء متوضئاً ورأيت فيما يرى النائم رؤيا غريبة ـ خير إن شاء الله ـ غربان ذات وجوه آدمية أعرفها تحوطني من كل جانب. . . تمد مناقيرها السوداء في محاولة لنهش لحمي،

ولكنها كانت ترتد خائبة دون أن يمسني منها أذى. . . رأيتني ساكناً مطمئناً مبتسماً لا أثر للخوف عليَّ، وفجأة حطَّت على صدري حمامة بيضاء كبيرة تحمل في منقارها ورقة نورانية فانتفضت الغربان وولَّت هاربة. . . صحوت على آذان الفجر فامتلأت نفسي بالسكينة والأمن. . . في الصباح زارني صديقي العارف التقي. . . تمعَّنْتُ في وجهه وكأنني أراه لأول مرة، وتذكرت حمامة الرؤيا البيضاء!! وقبل أن أفتح فمي بكلمة بشَّرني بالفرج وحكى لي رؤياي بتفاصيلها. . . (هناك رواية أخرى جرت على لسانه لأصدقاء أكثر حميمية مفادها أن صديقه العارف التقي حاول فعلاً زيارته مع المحامين الأربعة المشار إليهم في فصل المحاكمة ولكن طلبه قوبل من الجهات الرسمية بالرفض. . .)

. . . . . .

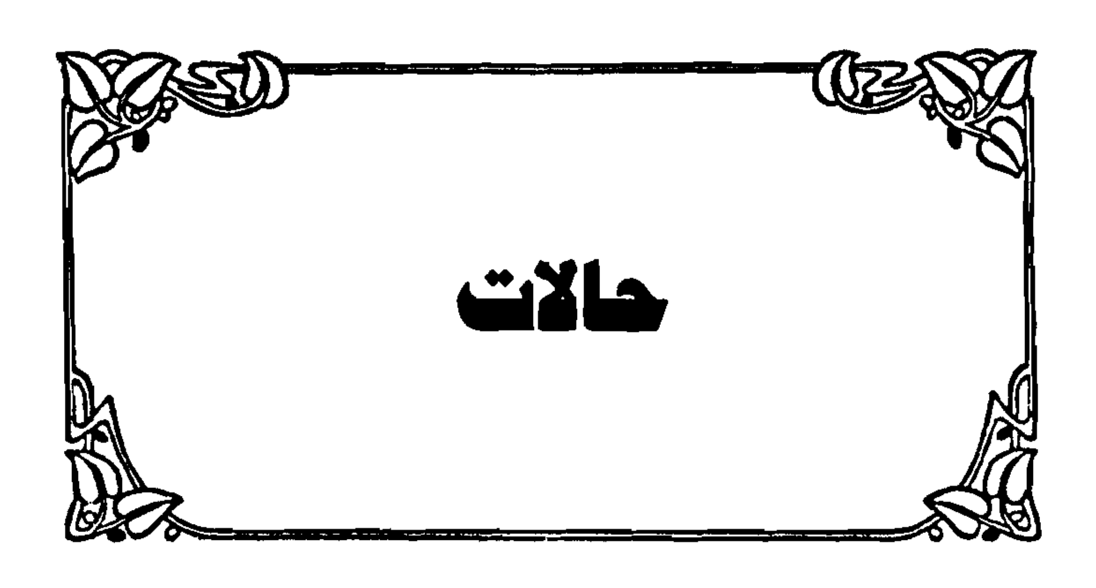
. . . . . .

ويهز الحاضرون رؤوسهم عجباً أو تظاهراً بالعجب.

وتتناثر من الأفواه الصديدية عبارات التملق والمديح الكاذب. . . لماذا؟؟ خوفاً من الغد المجهول. . . إذ ربما، ومحتمل أن. . . (لا تدخل - محتمل - هذه في مقررات علم الاحتمالات الرياضي الحديث، ولكنها تندرج تحت فصل الخوف في قاموس المصطلحات النفسية. . .)

وتمر مواسم قضائية عديدة
وتنمحى من الذاكرة الجمعيَّةِ المتعبة تفاصيل القضية الأساسية.
وتنشغل الصحف بشخوص وفصول مسرحيات أخرى هزلية
وتتراكم وريقات الحساب
لكن وقت الحساب حتماً سيجيء...

١٩٨٧/١/٩.



حالات

(١)

لغرض لم أعرفه ألحَّ عليَّ صديقي أن نزور الرجل. . .
لم تكن تـربطني بـه أي معرفـة سابقـة. . . اشترينـا عدة أصناف من الفاكهة. . . حملنا الأكياس واتجهنا إلى بيتـه الواقع على ناصية حارة موسومة بسوء السمعة وما ان دلفنا إلى الحارة الضيقة حتى وجدنا أنفسنا وسط سرادق شعبي بسيط يقابل البيت المقصود تماماً. . . وقف المعزُّون لنـا فجلسنا بينهم. . . امرأة مجللة بالسواد خرجت من البيت منـدفعـة. . اتجهت نحـونـا وسلمت على صـديقي ثم بكت. . . تناولت أكياس الفاكهة ومضت. . . بعـد انتهاء العزاء سحبني من يدي وخرجنا. . . بعد أن ابتعدنا قليلاً انفجر في الضحك، ومن يومها لا أعرف لماذا كلما رآني أصابته نوبة ضحك هستيري شديدة. . . . .

(٢)

دخلت عليَّ مبتسمة وقالت: إنها مهووسة بك. . .

قلت: ولكنني مهووس بغيرها.

قالت: ولكنها الأجمل...

مدَّت يدها في جيبي وتناولت الخمسة قروش التي كنت أتيه بها على أقراني ومضت... قلت لنفسي: لا ضرر.

في الليل تناولت قلماً وورقة مزخرفة وسطرت رسالة... في الظهيرة أخذتها بعد أن وضعت يدها في جيبي واستولت على القرش الذي نشلته ليلاً من صديري أبي.

بعد العصر قالت: تسلَّمت الرسالة ولكنها لن تستطيع الرد حالياً... أومأت برأسي موافقاً، وظللت على هذا الحال... أكتب الرسالة وأدفع القرش ولا رد... تزوجت وأنجبت وما زلت على عادتي اليومية محافظاً.....

(٣)

جدتي العجوز جداً نبتت لها أسنان لبنية فاستبشرت ودأبت على تنظيفها في اليوم خمس مرات بالفرشاة والمعجون المستورد من بلاد الغال ـ كما تقول ـ... أوصت ابن ابنها البكر ساكن المدينة القريبة بشراء ثوب منقوش بالورد الأحمر مع خلفية زرقاء... مع الثوب طلبت نطاقاً من نفس لون الورد. ارتدته وخرجت إلى الشارع

مزهوة رغم اعتراض الأبناء والأحفاد البالغين... بعد ساعة جِيءَ بها محمولة على حمار غريب....

(٤)

قال: دخلت على ذي الحلة البيضاء النظيفة فأمرني بالجلوس... جلست، ولما طالت الجلسة سألته: ألن تراني؟؟

قال بقرف: تكلم أنت...

قمت منفعلاً وأغلقت الباب بالمفتاح ثم رميته من الشباك...

قلت مندهشاً: رميت من؟؟ الرجل!! ولماذا؟؟

قال غاضباً: أنت تهرج... ثم تركني ومضى...

بعد أن هدأت أعصابي قليلاً تبيَّنت أنه مجرد تصور مبدئي لسيناريو من الجائز جداً أن أنفِّذه...

(٥)

تغط المدينة في سبات أسمنتي التكوين... تفح سعارها الذي اكتنزته نهاراً فيكتسي جلدي بطبقة مقرفة من الصهد والعرق... إضاءات فوانيس الشارع تختلط برائحة اليود المشبع ببخار الماء مع بصيص واهن ينسل من غلالة نافذة الكون البعيدة.

النادل يرمقني بغيظ من وقت لآخر وقد ارتخت مشابك جفنيه.

هو ذا المقهى العتيق يعج بأشكال آدمية متباينة... يلتفون بالطاولات الخشبية المتهالكة منغمسين حتى النخاع في مهرجان النشوة الطارئة تتقافز الكلمات متلفعة بهستيريا السعادة في محاولة مستميتة لاقتناصها. وإذ تتلاقى عقارب الساعة عند الذروة ويبدأ الصبح في استعادة فعل رئتيه تهرع العيون المحمَّرة لائذة بالمركبات المتراصة بنظام قصري (تصبحون على خير)... عند هذه اللحظة يبدأ تشابكي...

(٦)

تلتف الذكرى بالذاكرة... أقف على شفا الحلم فيراوغني في دهاليز رأسي المتشابكة كسراب أسطوري.
الفتى الهصور في دمي يمتطي سرج براق عجيب
يقودني عبر تلك الدهاليز بسرعة الضوء
يجرجرني بعنف إذا ما اعتراني النصب مقتحماً المرافىء والحدود

أسأله التروي لكنه لا يلتفت ضاماً في قبضته الفتية خيوط حلمي القديم.

(٧)

تلك الوريقات الصفراء التي سقطت بالأمس أصابتْني بالاكتئاب...

لزمت حجرتي...

لم يكن ثمة داع للخروج في مثل هذا الوقت من النهار...

يلوح من بعيد الأفق الملبد المصدور زفرات...

الوريقات القليلة المتناثرة على أفرع الشجرة العتيقة تتهيأ هي الأخرى للسقوط... أزداد كآبة وتشبثاً بسريري اليزيق من تحتي... نخر عظامه البق اللعين... التصقت واحدة بقفاي وراحت تمص البقية الباقية من دمي (قال الطبيب بدون أن يلمس أدواته: فقر دم... يبدو أنك تمارس الـ... كثيراً) كان منتفخ الوجه أبيض كالجير الحي... تساءلت: وما علاقة هذا بذاك؟ واهناً كان صوتي إذ لم يعلق البتَّة ذو الرأس الكبير المنسَّق بطريقة بشعة خطَّ على ورقة نتيجة قديمة «حديد» أرشدني بعنجهية صلعاء إلى صيدلية بعينها ونادى: غيره.

هبطت يدي على قفاي بطريقة لا إرادية وضغطت بشدة أصابعي (قالت أمي بحزن نبيل: تزداد نحولاً!!) أمي أكثر نحولاً من هرة البيت العجوز (زارني جدي الشيخ في إحدى ليلات الصيف كآبي الوجه والنظرات، ورغم أنني لم

أره حياً إلا أنني عرفته: هل عدت يا جدي؟؟ قلت ببراءة طفلي) ضربني على صدري بقسوة وقال: تركت فيكم ما أن تمسكتم به...

كانت الأرض تفح سعارها من تحتي (تلفت داخلي فلم أجد غير عظام نخرة مكسوة بالشغت والجلد المدبوغ زعقت: يا جدي الشيخ هل من علامة؟؟ قذفني بهراوة ثقيلة كانت في يده وتلاشى مخلفاً صورته المثبتة على الجدار المقابل لذاكرتي بتحد صارخ) أبي قال متهكماً: هل تغطيت قبل النوم جيداً؟؟ لم أرد، وانبعثت من بين أصابعي رائحة الدم الكريه (كانت الأوراق تسَّاقط... الواحدة تلو الأخرى أمام عيني الزجاجيتين) أحسست بلسعة على قفاي تلتها لسعات أشد (ابتلعت حبة منوم واستلقيت على سريري الخرب) ترنمت ببعض أبيات من الشعر اقتطعتها من قلبي في ليلة منْ ليالي الخريف الموحشة وما زلت أزاول المثابرة.

(٨)

أمس الأول هاجم الذباب الأزرق الكبير أوزة مسالمة كانت تحمل على ظهرها أولادها وأولاد جارة عزيزة غائبة وهي في سبيلها إلى الترعة القريبة (أنزلوها عنوة وسط خرابة تسكنها فصيلة مشابهة وأشبعوها ركلاً وعضاً) راوغت الأوزة البيضاء حتى تمكنت من الفرار (ولما وصلت إلى الترعة

اكتشفت أن الماء غيض والأولاد ليسوا على ظهرها) وقفت تنوح على الحافة المشققة مهددة ذباب الأرض قاطبة (عادها الذباب الأزرق الكبير محملاً بأجولة الأرز والدقيق الفاخر والسمن وأقماع السكر والنشادر) خمش ظهرها بحنو بالغ وأبلغها مبتسماً أن الأولاد في الحفظ والصون... ثمة إجراءات ذبابية وبعدها تصير الأمور كالحليب الجاف، أما أولاد الجارة الـ... فهم طاعون مؤذ يجب اجتثاثه ورغم أن الأوزة البيضاء أدارت رأسها الصغير للجهة الأخرى راسمة الغضب، إلا أن أذنها اليمنى كانت معهم تماماً...

(٩)

ابتدأ الجمع في التوافد حاملاً مزاميره التي تبخ حصائد الألسنة مثنى وثلاث ورباع (يتحوطون الطاولة في انتظار ما سيخرج من جعبة الحاوي) الرغبة في تفريغ القيء اليملأ الصدور الكربونية تصطفق في الأصفر الداكن معانقة مسلات الدخان فتجحظ العيون مادة عفونة المحتوى يهمس الدسَّاس لجاره المتأذم دوماً:

* أين...؟

ــ في الطريق.

* وهل..... سيجيء؟؟

يقهقه ثعلبي السمت: بالطبع فالموقف بدونه لن «يصهلل»...

وإذ يحمحم المضيف الفتي حمحمته ذات الخطوط آلمتآكلة كأسهم صدئة يتحول مجرى اللغو إلى برك تصوراته فتحمى الجلسة وسط قرقعات سلاميات الأصابع وسخونة الطبق الأسبوعي اللزج.

قال:

لا لم يقل

لكن قيل...

وهب أنه قال كما قيل فهل نربط لسان الخلق؟

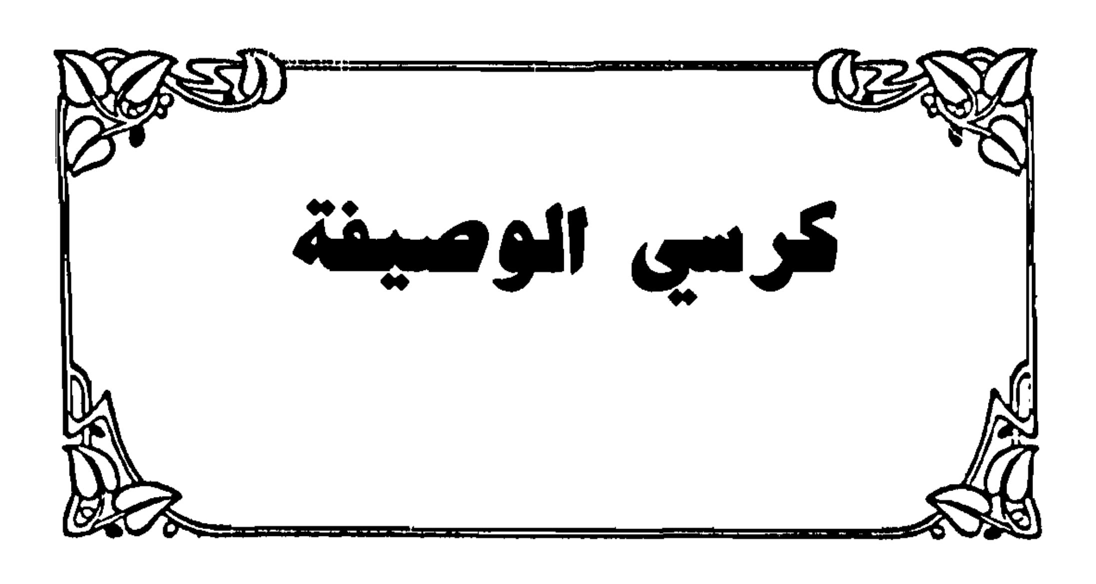
لكنه يتصورنا بلجام...

غبي وأحمق و...

ليس كذلك.

كذلك...

تتداخل الأصوات وتنجدل في حبل ليفي يتضخم حتى يسد المنافذ (حينئذ يمد الرأس الكبير نصال حلقه قاطعاً ذلك الامتداد الهيولي) يتهته ثم يسعل ثم يقف ضارباً على بطنه المنبعج (يلملم طوق ثوبه بيده ويزيح بالأخرى قليلاً غطاء رأسه هارشاً مقدمتها) يتمطى لاعناً الدسم الخبيث مهيج كريات الدم محبط عمل القلب مذكراً الجمع بـ «نحن قوم لا نأكل حتى...» وإذ تتماس مؤخرته مع حشية المقعد المعد خصيصاً له منهياً نثاره الأسبوعي تبدأ كيمياء الدسم فعلها، فينكفىء الرأس بعد ثوان محدثاً جلبته المعهودة.



كرسي الوصيفة

* بداية تعارفنا كانت على المقهى.. قلت له: ملامحك غير غريبة عليَّ.. تقابلنا ذات يوم لكنني لا أتذكر المكان... هز رأسه بطريقة ملفتة فتداعت على الفور الصورة قلت: على مقهى أبادير بوسط البلد.... تذكرت، كنت تجلس على الكرسي الخيزران ذي المسند العالي المنقوش عليه رؤوس أسود وثعالب مروعة من شيء ما غامض لكنه محسوس وكانت صاحبتك الشقراء تغمز بعينيها تجاهي وتقهقه.

قال: نعم هو أنا، وكانت صاحبتي الإسبانية قد اقترحت عليَّ السفر من مدينة أربيلاً بوسط إسبانيا إلى باريس مشياً... قالت: هل تتحمل الرحلة؟؟ أخذتني العزة وقلت: للمتجمد الشمالي إن أردتِ... وانتهت الرحلة بعد شهرين على باب المقهى الذي تقصده واسمه الصحيح لابادو، كان ذلك منذ عشر سنوات يا لذاكرتك العجيبة!! أما الكرسي الذي كنت أجلس عليه فلم يكن من الخيزران كما ظننت ولكنه من خشب الأرو الفاخر، تتقاطع

عرضاته طولاً وعرضاً بفنية متقنة شـأن الطراز السـائد في زمنه، ولم تكن الرؤوس المنقوشة لأسود وثعالب، ولكنها لوصيفة الملكـة فونتينـا المقتولـة في هوجـة ثورة الجيـاع المشهورة.

قلت: تقصد الملكة ماري أنطوانيت؟

قال: نعم هي، وفونتينا اسمها قبل الدخول في بلاط لويس ويعني الينبوع، ألم تقرأ مطلع القصيدة الشهيرة.

«فونتينا أيتها النورسة المغدورة
المجد لك في الأعالي
واللعنة للخائنين. . .»

أما لماذا نُقش رأس الوصيفة على المسنـد إيَّاه دون غيرها فلأنها الوحيدة التي ظلت معها حتى لحظة انفلات الروح، ولأنها كذلك آخر رأس دحرجتهـا المقصلة، وقد سجَّل رسَّامٌ هاو مراحـل إعدامها على مسند كرسيها إعجاباً بموقفها النبيل، زعم البعض أن الغرندوق أَتَاوْ حبيبها الأثير نقشهـا بسن خنجره قبـل إعدامـه بدقـائق ولكنهـا محض تكهنات لا يعتد بها إذ أن الغرندوق كان خارج باريس ولم يعرف عنه اهتمامه بالنقش، والمتواتر أنه مات منتحراً بعد أن وصلته الأخبار. . .

هل تعرف بكم بيع الكرسي؟؟

قلت مشدودا: بكم؟

مسح فمه بطرف كمه وقال: بعشرة ملايين فرنك نقداً وعدّاً وعلى رؤوس الأشهاد. . . اشتراه أول مالك للمقهى، وما زال الورثة يحتفظون به، وهذا الكرسي لا يسمحون بالجلوس عليه إلا لعلية القوم إذ أن تكاليف صيانته السنوية تربو على الربع مليون. . . قلت مستغرباً: وهل أنت منهم؟؟ قال: في الحقيقة لا ولكن صاحبه توهَّم أنني نجم فرقة (الفيف أم) الأمريكية فدعاني للجلوس عليه.

قلت: هل تتذكرني؟؟

أمسك برأسه بين كفيه الأعجفين ونظر للبعيد مفكراً، ثم انفرجت أساريره وهتف: نعم نعم تذكرت. . . كان يجلس قبالتنا شاب رث الثياب ذو وجه قبيح وشعر طويل أجعد، وكانت صاحبتي تشير إليه قائلة: انظر إلى هذا القرد الإفريقي الجميل. امتعضت من التشبيه وهتف بي دمي الحار أن أدق عنقه لكنني تماسكت في آخر لحظة وقلت معاتباً:

هل أشبه القرد إلى هذا الحد؟؟؟

قال ضاحكاً:

إذن هو أنت. . . يبدو أنك لم تفهم نفسياتهم جيداً. . . كم مكثت هناك؟

قلت: خمسة متتالية وثلاثة متفرقة.

رد متهكماً: لا تكفي. . . لك الحق. . . كنت في

العشر سنوات الأولى أغضب وأثور مثلك حتى فقهت. . .
يا سيدي صاحبتي تقتني في قصرها بأربيلا قرداً أهداه لها جدها البارون حاكم مقاطعة كوتيشا المتاخمة لحدود البرتغال عند عودته من رحلة صيد بأحراش إفريقيا، وهذا القرد هو كل حياتها أما صاحبتي (خفض صوته وهمس: هي في نفس الوقت زوجتي على سنة الله ورسوله، وهذا سرٌ لا يعلمه سواك فاحفظه) فقد تعرفت عليها صدفة أثناء إقامتي بجزيرة دوناكو، ولهذه حكاية: في مرحلة متقدمة من شبابي قررت أن أغيِّر نمط معيشتي، لم يكن ينقصني شيء ولكنه الطموح. . . قلت يا ولد وسامتك ولون جلدك والخمس لغات التي تتقنها هم مفتاح السعد فلا تدع الترف يدفنك حياً، وضعت خريطة المعمورة أمام عينيَّ، وجلست أخطط. . . استراليا؟ قريبة ممن هم على شاكلتي. . . كندا؟ سبقني إليها شذَّاذ الأرض والجو فيها غير ملائم. . . فرنسا ودول الشمال طهقت من المهاجرين وطبيعتي لا تناسب غسل الصحون وجمع العنب. . . ولاحت لي على الخريطة جزيرة صغيرة وسط المحيط على خط العرض اثنين وثلاثين ونصف تماماً بحثت في كتب الجغرافيا عن طقسها وسكانها حتى اطمأن فؤادي. . . قلت هي وجهتك يا ولد باسم الله مجراها ومرسيها. . . المهم وصلت وكنت أول ملوَّن يهبط عليها، واندمجت سريعاً مع الأهالي، وبعد

فترة بسيطة. أوكل إليَّ إدارة الميناء، وذات صباح كنت أمارس هوايتي القديمة في التزحلق على الجليد كان الجو مبهراً حقاً رغم لسعة البرد، وبينما كنت أنظف حذائي مما علق به سمعت استغاثة... هرعت إلى مصدر الصوت، فأبصرت بفتاة محشورة بين كتل الجليد... خلصتها بصعوبة من موت محقق وحملتها معي إلى كوخي حتى استراحت، وصممت هي على أن تعرفني بأبيها حاكم الجزيرة الإسباني، ومن لحظتها لم تفارقني كما رأيت، وذاع في الجزيرة ما حدث فأطلقوا عليَّ اسم الدرفيل المخلِّص... هل فهمت؟؟

قلت: لم أفهم...

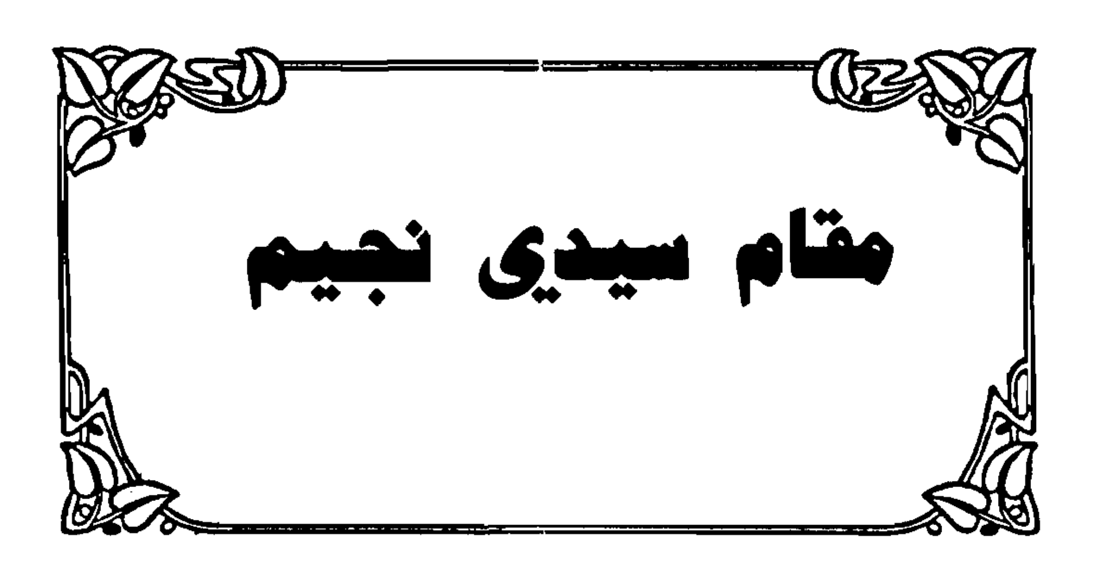
قال: هل تعرف شارع لوران المتفرع من ميدان البوندومييه؟ طبعاً تعرفه لأنه على بعد نظرتين من المقهى إيَّاه، على ناصية الشارع محل كبير لبيع الفطائر تعرَّفتُ فيه على اللورد استيفاني والبارون امبان الصغير حفيد صاحب القصر الأشهر بمصر الجديدة وكريستوفر ديماس الابن... هل تعرف الشقراء الفاتنة الواقفة دوماً على مدخله؟ إنها صاحبته وصديقتي... كنت ماراً ذات أصيل قبل أن أستقر في إسبانيا ولمحتني فصاحت: من؟! الكنغر الحبوب؟ لم ألتفت إليها فقد كان حرس الرئاسة يقفون بالقرب من المدخل فتكهنت بما يدور لكنها لحقت بي وأخذتني من

يـدي وقدمتني للضيـوف الكبار وأنـا جد مـرتبك: هـو ذا صـديقي الكنغر الحبُّـوب ـ قـالت لهم ـ وأسعفني ذكـائي فقلت: أهـلاً بصـديقتي الحـربـاء الـرائعـة... وتعــالت صيحات الاستحسان ولـم تغضب... هل فهمت الآن؟؟

نظرت إليه مندهشاً وقلت: ولكنني لم أزر باريس يا صديقي أبداً... ولا أعرف ماذا تقصد من كل هذا؟

قهقه طويلاً ثم ربت على ظهري، وبكى...

وافترقنا على حب...



مقام سيدي نجيم

فوق ربوة تطل على الطريق الواصل بين قريتي «السين» و«الشين» يرتفع بناء أبيض كتب على واجهته بخط بارز (صِلُوا نجيم) ولأن العبارة كما تبدو مبهمة فقد نشبت حول تفسيراتها معارك كلامية لا حصر لها، لكنها ظلت تحمل معنى واحد لا يتغير عند عوام المنطقة ـ ضريبة مفروضة على كل بالغ عاقل يمر بالمقام وإلا أصابه الضر ـ أين تذهب؟ سؤال قديم قدم الحكاية ذاتها، وإراحة للنفس والدماغ قيل أنها حق مشروع لخدم المقام الذين لم يرهم أحد، أما أصل «نجيم» فغير معروف إذ أن الاسم غير متداول في الناحية وإن كانت هناك بعض التفسيرات التي لا ترقى لمستوى اليقين.

روى جدي عن جدته أن أحد متحذلقي عصرها انتقد ذلك السلوك مكذباً ما أشيع عن ظاهرة التجدد الذاتي للون المقام واتهم جهة ما بتبني هذه الخزعبلات وترويجها عمداً بين الأهالي بغرض الهائهم... في صبيحة اليوم التالي وُجد معلقاً من أذنيه على باب المقام (ضَحِكْتُ) بينما

بسمل جدي وقرأ المعوذتين وقال: أُمرتُ ألّا أخوض في هذه السيرة أبداً، فلا تلح عليَّ يرحمك الله. . . ، ولما لم ألح عليه كما طلب ابتسم وقال: يا لك من ولد شقي تجرجرني في الكلام بدون أن أدري. . . اسمع وانسَ ولا تعلق:

في زمن بعيد حدث هذا. . .

قال سيدي نجيم (تفل جدي في كُمِّ قميصه ثلاثاً) هكذا سمعت والله أعلم: «ملعون ذلك اليوم الذي عرفتكم فيه». . .

لمن الخطاب بالتحديد؟ لا أحد يعرف. . . ثم حدثت القطيعة التي امتدت حتى هذه اللحظة من جانبه. . .

أما هو فقد انتبذ من الناس مكاناً قصياً وابتنى لنفسه عشة من الخوص لصق ترعة القتيل (هناك عدة روايات تدور حول أصل هذه النسبة الغريبة أكثرها رواجاً حادثة قتل مروعة راح ضحيتها مظلوم، ويربط العامة في المنطقة بين هذه الحادثة وحادثة مقتل «السيد عليبه» التي وردت في مجموعتي القصصية «تغريبة بني صالح» رغم اختلاف الأمكنة والزمن، ولأن قاتل «السيد عليبه» ما زال حياً يرزق فإننا نجزم بفساد هذا الربط).

قال جدي أن سيده نجيم كان يُشاهد من بعيد حاملاً على كفيه حمولة قطيع كامل من الجمال خُوصاً بدون جهد

يُـذْكر من المصـرف الضحل الفـاصل بين زمـام القريتين (المسافة تقترب من ألف وخَمْسمائة متر. . .)!!!

إلى أن ارتفعت العشـة منفـردة في المكـان القفـر، والعشة كما شوهدت فيما بعد من طابقين يفصل بينهما سلم من اللوف المجدول، قيل أن الطابق الثاني خصَّصه للنوم والأول لاستقبال ضيوف غير معلومين على الاطلاق.

«نوح بن مسعدة» المخبول الذي ارتَّـد إليه عقله في أخريات أيامه أشاع أن الرجل وليٌّ مُتَّصِلٌ ذو كرامات، ولما سـأله متعـالم فظ بسخـريـة: ومـاذا تعني متصـل يـا ابن مسعدة؟! أخذ بتـلابيبه ورفعـه في الهواء ثم تـركه معلقـاً لأيام. عجوز حكيمة شهدت الواقعة أشـارت على الناس بالانصراف قائلة: اتركوهم في حالهم ولا تزعجوهم.

قاطعت جدتي جدي وقالت أن العجوز الحكيمة هي جدة جدة جدتها.

أما ابن مسعدة فقط اختفى. . . شاهده نفر من السين صاعداً إلى الطابق الثاني من عشة نجيم.

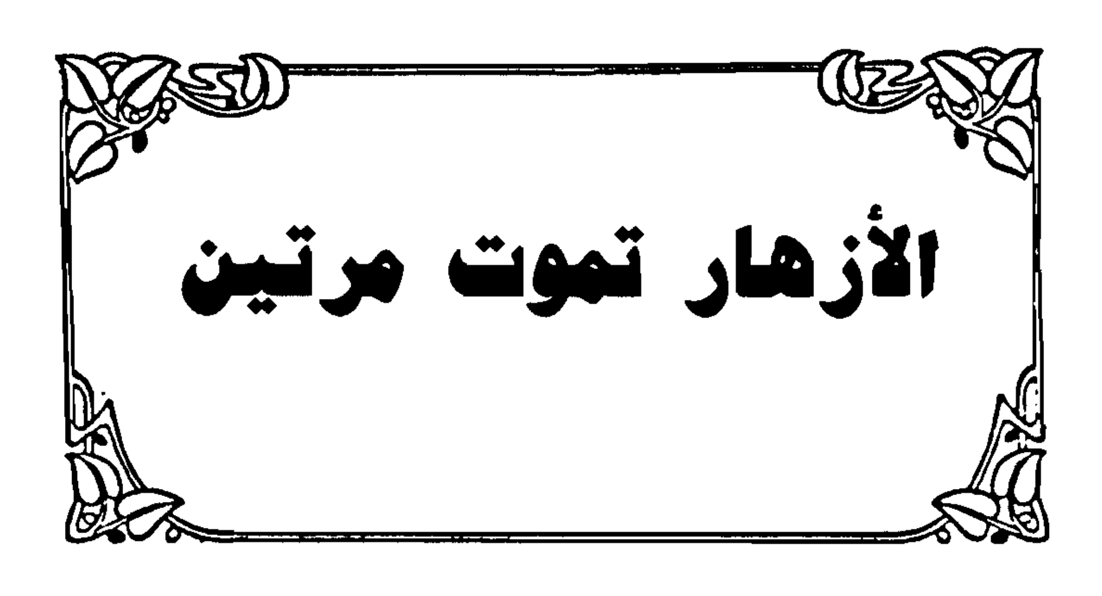
قيل أن البركِة قَلَّت واصفرَّ الـزرع وهجمت حشرات غـريبـة على الـدور فهـجَّ النـاس إلى البـراري وحـدثت المجاعة.

سألت جدي عن «نوح بن مسعدة» وهل هو الذي توفي من سنوات قليلة؟ فوضع يده على فمي منزعجاً وهمس: مالك يا بني والدخول في هذه العوالم! نعم هو فاكتم الخبر... يظهر في النصف الأخير من كل قرن وتأتي في أثره المصائب... ألم تر أن دودة القطن أهلكت المحصول في العشر سنوات الأخيرة؟؟ إسمعْ كما قلت ولا تتدخلْ قال قائل صِلُوا نجيم وابن مسعدة يرحمكم الله...

ويهرع الناس إلى العشة المباركة حاملين معهم ما كنزوا، ويبصرون بهما نائمين أو شُبِّه لهم ذلك، ويقفون أياماً (في رواية جدتي سنوات) بدون جدوى، وينطلق صوت من بين الجمع صائحاً (قال بعض المريدين أنه صوت ابن مسعدة):

يا أيها الناس اتخذوا فوقهما مقاماً...

١٩٨٧/٦/٢٥



الأزهار تموت مرتين

كنت في تلك اللحظة أقرأ لأول مرة مجموعة قصصية للكاتب الأرمني «وارتكيس بدروسيان» عندما دخل علي بوجهه النحيل الشاحب، جلس على المقعد المقابل وظل صامتاً لفترة كنت خلالها أتابع قراءة القصة الثانية «لماذا تموت ـ الأزهار باكراً» القلم الرصاص في يميني أصحح به أخطاء الترجمة الركيكة ورأسي المتعب يقفز بين الأسطر، الكاتب جديد علي ولا مفر من المتابعة تنحنح هو ومد يده بسيجارة، أخذتها وقلت كاسراً حدة الصمت: كيف الأحوال؟ لم أنتظر رده وانهمكت ثانية في القراءة، بعد فترة لا أعرف مقدارها أحسست بصهد يلسع جبهتي، قلت لنفسي أنها حمية الأفكار وكآبة جو القصة، ولما ازدادت حدة الصهد رفعت رأسي، كانت يده ممدودة بعود ثقاب مشتعل ووجهه مشغول بشيء ما في الناحية الأخرى، أشعلت سيجارتي وأبعدت يده قلت: لماذا تموت الأزهار باكراً؟؟ واجهني بعينين دهشتين وأفرغ فمه المملؤ بالدخان في وجهي، انقبضت ملامحي وقلت: كيف الأحوال؟ قال:

دخان ـ الأحوال دخان!! ابتسم ابتسامة حمضية وهمس: هل انتهيت؟ قلت: ليس بعد. قال: ماذا تقرأ؟ قلت: قصة. قال: قصة من؟ فاجأني السؤال إذ احتمالات الجدل من حوله كما حدست كثيرة فلو قلت له (مثلاً) قصة وارتكيس لسألني: ومن هو؟ ومن أين؟ و. . . و. . . و. . . سلسلة طويلة ومملة لذا وجدت من الأجدى أن أتجنب ثرثرته المحتملة وقلت: قصة رسالة من محب ميت إلى حبيبة بدون عنوان. . . قال ماسحاً كل تصوراتي: الميتون يكذبون. . . وضعت القلم جانباً واتجهت بكليتي إليه (الميتون يكذبون)!! فكرة رائعة حقاً. سحب نفساً من سيجارته وقال برقة ظاهرة: هل تسمع شيئاً من شعري؟ قلت متعالماً: هل تكتب؟ قال: من ثلاثين عاماً. . . سحب ورقة من جيب قميصه. فردها وتلى بصوت مشحون بشجن الدنيا كلها قصيدته القصيرة. قلت: أشجيتني ورب الكعبة يا أبا علي، ولست أدري لماذا خامرني ذلك الصوت الأسيان المتصاعد بقوة من بين قرون خلت (أضاعوني وأي فتى أضاعوا) أضاعوك وحق الفقراء. قال مأخوذاً: من أضاعوا؟؟ قلت: الجواهر يا أبا فاطمة. أربد وجهه وغمغم: لماذا تذكرني بالمواجع؟ تنهد طويلاً: هل تسمعني؟ قلت: أسمعك. قال: عملت صيدلانياً قبل نزوحي في ضاحية مكتظة بالخلق من ضواحي العاصمة،

وذات يوم قائظ خانق انفكت عقدة الزحام اليومي الشديد قبل موعد الإغلاق بساعة، فألقيت بنفسي على أقرب مقعد، وحانت مني التفاتة إلى المقاعد الخالية بمدخل الصيدلية فرأيت فتاة تجلس مرتبكة وعيناها مثبتتان عليَّ، ناديت عليها فتقدمت ومدت يدها بأربع وصفات طبية (تأمين صحي) سألتها: لمن كل هذه الوصفات؟ قالت: لزميلاتي في العمل،... كان الصداع يهرس رأسي وروحي عند طرف أنفي، ابتلعت خمس حبات أسبرين وصرفت الدواء قبل أن يركبني مائة عفريت لكنها وقفت متصلبة، تحسست وجهي وأعصابي تتطاحن: ماذا بعد؟ أطالت النظر ثم انصرفت دامعة، وتكررت العملية كثيراً، قلت في الأمر سر، لماذا تفعلين هذا يا آنسة؟ فبكت!! يا إلهي... طلبت منها انتظاري في الخارج ريثما ينتهي وقت العمل وقد كان، في الطريق سألتها: هل تحبين الجلوس في مكان هادىء؟ أشرق وجهها وهزت رأسها موافقة، جلسنا وبعد أن هدأت سألتها عن اسمها فقالت فاطمة (جميل) ما الحكاية يا فاطمة؟. ألم تعرف بعد؟. أحب أن أعرف...، وعرفت. كان وجهي حينئذ أبيض كالشهد وشعري مثل الحرير.... سألته بخبث: وأنا أتمعن في سحنته مقارناً بين الصورتين: كيف كان ذلك؟ ثار واحمرت عيناه... فانكمشت في مقعدي ساكناً.

قلت: كـان... لماذا تقـاطعني إذن... هـل كنت معي؟؟ ولما لم أرد أشعل سيجارته العاشرة وتابع: بعد عدة لقاءات اندمجنا معاً، كانت تقول لي: وأنت معي يعتـدل ميزان الكون... عرفتك قبل أن أعرف نفسي واسمي... دائماً أراك فيَّ وحولي يا توأم روحي...

كلامها الجميل الذي لا أعرف من أين تأتيها بلاغتـه وعمقه كان يرسم لي عالماً مغايراً للمعاش واليومي الكئيب فانفتحت في داخلي أبواب جنـان كانت من قبـل مغلقة، وكنت أقول لها بعد أن انفكَّت عقدة لساني وانمحت ملامح الكآبة من وجهي: تجيئين في المـطر... أحبه الآن أنـا الذي كنت أرتعب من وقع ضرباته الرتيبة على صفيح سقف بيتنا... قوس قزح بألوانه الزاهية أصبـح يزرع في قلبي الفـرح... غـائبـة عني كـانت تلك الألــوان إلا حينمـا حللتِ...

وفي لحظة صفاء طلبت يدها فكادت تطير، كنت قد هيئت الجو في البيت رغم اعتراض الوالدة «أختك الكبيرة يجب أن تتزوج أولًا»... لن أتزوج الآن يا أمي... مجرد خطوبة...، وبعد لأي قالت: أراها.

طلبت منهـا أن تزورنـا فقالت منـدهشـة: أزوركم!! المفروض في مثل هذه الأحوال أن...، ولكنها رضخت

في النهاية وجاءت، ولا أراك الله، تسلمتها أمي قبل أن تهدأ أنفاسها:

* هل أنت فاطمة؟؟

ـ نعم يا أمي.

* أين يا ابنتي الشقة التي ستتزوجان فيها وأين المهر و... و...؟؟ الحالة كما علمت مثل الحالة فكيف ستدبران أموركما؟؟

ردت عليها فاطمة بمثالية: لا أريد أي شيء... أريده هو فقط.

وهنا فقدت أمي أعصابها تماماً: يا لجرأتك (تلتها لفظة مهينة) ابني يا بنت الناس لن يتزوج قبل أخته وأنا حيَّة... (أختي كانت في الثالثة والأربعين) لكنني لم أنبس بحرف، وخرجت فاطمة من بيتنا منهارة...

يوم ويومان... شهر وشهور وفاطمة لا تظهر!! وذات صباح شتوي رأيتها تقف على باب الصيدلية شبحاً.... عصا يابسة... أي شيء غير فاطمة الأولى. ودأبت على هذه العادة... تقف متصلبة خلف الزجاج الخارجي مكتفية بالنظر إلى أن رحلت عن الدنيا نهائياً...

مبهرة كانت وحالمة

في أثرها أينما تحل رهافة الآس والقرنفل

ملامح وجهها تقول للوجود: قف

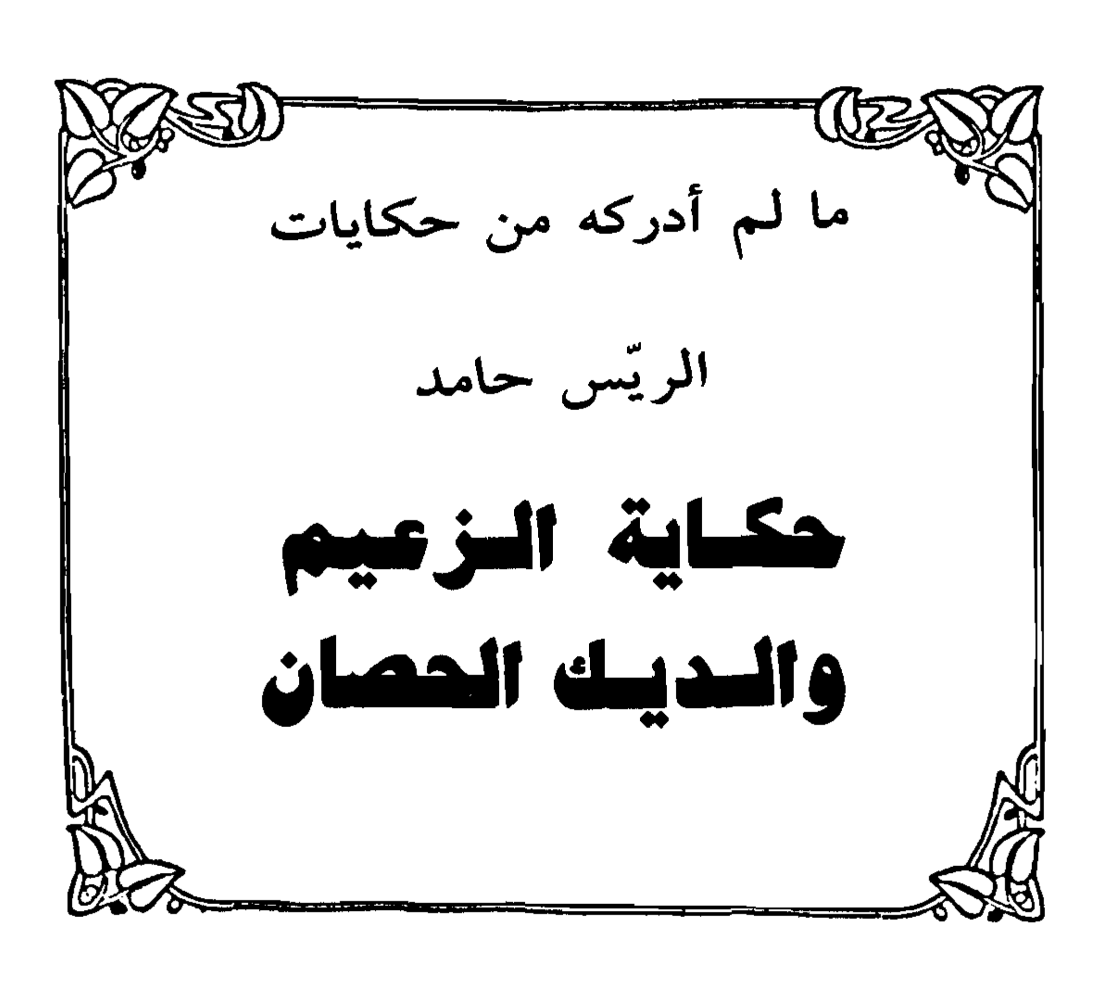
هنا الفرح السرمدي وبشاشة الزقزقات الطفلية
لكنها فاطمـة تنفلت مسافـرة للبعيد البعيـد قبل أوان التماس...

....

....

أصبت بالاكتئاب فترة ولما تحسنت حالتي طلبت نقلي إلى مكان آخر.

١٩٨٧/١/١٣



ما لم أدركه من حكايات

الريّس حامد

حكاية الزعيم والديك الحصان

حدَّث ابنُ يوسف فقال:

صحبت الريِّس إلى المحلَّة في زيارة لم أعرف لها سبباً، فقد رحل يرحمه الله وترك السؤال معلَّقاً في رأسيَ كالأرض الوقف...

قال: تعالَ معي يا إبراهيم.

وجهه كان خريفيّاً.........، رثيت لمنظره وحاله فقلت: معك يا ريِّس.

قال: بربك فاطر السموات والأرضين لا تسألني إن رأيت منِّي عجباً...

قلت: لك ما أردت.

جلسنا في العربة على مقعدين متجاورين، رأسه بين كفيه وجسده ينتفض، في الطريق هَمَتْ عيناه بدمع غزير فالتفت إليَّ وقال: على يديَّ هاتين حملته طفلاً وصبيّاً ومَيْتَاً، اسأل الجميل وَلَدِي كم لعبا «الاستغماية» و«الحمار الطويل» في حواري الصعيد وأزقَّتها وكم ضربتهما على شقاوتهما التي كانت مضرب الأمثال ـ هممت أن أسأله عن

الشخص الـذي يتحـدث عنـه بكـل هـذا الشجن ولكنني تـراجعت في آخر لحـظة احترامـاً لرغبتـه ـ قـال: ولهـذه حكاية. . . انتُدبت بأمر سلطاني بعد الحرب الكونية الأولى أميناً لبريد الصعيد، همس: غضبوا عليَّ في القصر لأنني كنت من المنـاصرين للخـلافـة فنقلوني كمـا رأيت نقـلاً تعسفيـاً، في الصعيـد استقبلني نـائبي الصعيـدي الشهم استقبالاً يجل عن الوصف وأكرم وفادتي بصورة لم أعهدها في إنسي، أحببت الرجل حتى صرنا واحداً لا رئيس ولا مرؤوس، تركت الاستراحة الفخمة المعدَّة لي وانتقلت إلى منزل متواضع لصق منزله، رُزقت في هذا المنزل المبارك بالجميل ورُزق هو بعد أيام بالجَمَال ـ معرَّفة ولا أدري لماذا رُفعت الألف واللام من اسمه بعد ذلك!! ـ كـان الجميل والجمال كأنَّما نبتا في رحم واحد شبيهان خِلْقَةً وخُلُقَاً!!! في هـذه الأيـام اقتنيت ديكـاً روميّـاً، أهـداه لي صـديق «عثمانلي» ذو حيثية، أحببت الديك مثـل الولـدين تمامـاً وأقمت له إلى جوار حجرتي سكناً، في شهـور قليلة كبر الديك وصار كالحصان، وحق هذه الصحبة الطيبة اشتريت له سرجاً ولجاماً وكان الجميل والجمال يركبانه معاً ويلفَّان في شوارع البلدة، هيه ـ زفر بألم ـ ذات صباح كان الولدان يلعبـان في المزارع القـريبة من النهـر ربـطا الـديـك في اسطوانـة حديدية ملقاة على جانب الطريق وانطلقا، بعـد

لحظات سمعا انفجاراً عنيفاً مصحوباً بزعابيب كثيفة، استلقيا على الأرض حتى هدأت، وبعدها لم يجدا للديك أو الاسطوانة أثراً. . . عادا والحزن يشرنق ملامحهما

* أين الديك؟؟؟ قلت بفزع

قالا: أكلته القنبلة.

ابيضَّت عيناي من الحزن وصرت لا أَقْرَبُ طعاماً ولا أكلِّمُ بشراً. . .

كانت الأمور في العاصمة قد تحسَّنت، إذ حَلَّ رأس طيِّب مكان الرأس القديم، رقّ الطيِّب لحالي فأعادني للقصر معززاً مكرماً، أما صاحبي فقد نُقل إلى الاسكندرية ولم أره بعد ذلك حيّاً.

مرَّت السنون عقوداً وعقوداً إلى أن تغيَّرت الأحوال وانقلبت الأوضاع، ذهب من ذهب وجاء من جاء، وخرجت أنا مع من خرجوا في حركة التطهير مهاناً، مَنْ هؤلاء ومن أين جاءوا ولماذا؟؟ لم أشغل رأسي، قلت يا حامد اطرحْ ما فات خلفاً، واقصد مسقط الرأس هو بك أَوْلَى، والأرزاق من تقدير الوهَّاب، عُدت إلى «شرشابة» أزرع ما أبقاه لنا الاصلاح من طين الأجداد، سنوات وسنوات تنفلتُ، وذات صباح شتائي أبصرت بموزِّع البريد يقف بالباب:

* ماذا تريد يا بني؟؟ زمان المراسلات ولَّى. . .

قال: لك يا كبير برقية.

برقية!!

فضضتها فوجدت التالي:

(سرِّي للغاية وعاجل.

الريِّس حامد الـ...

مطلوب غداً في القصر الجمهوري للضرورة القصوى...)

يا للمصيبة...

لن يرحم الشباب الطائش شيبتك يا حامد... ماذا فعلت؟؟

ماذا فعلت!! لا شيء... كل الأوراق بيضاء من غير سوء...

إذن ما الأمر؟؟

علمي علمك... استرها يا عليم...

تشجَّع يا حامد واذهبْ، ولن تخسر أكثر مما خسرت...

ذهبت وقلبي بين ساقي... انحناءات واحتفالات ومصورون ووكالات أنباء!! ما كل هذا؟؟ كنت قد قرأت في صحف الأمس هذا الخبر «البحث عن بتلر ساعد هتلر الأيسر... شاهده نفر متخفياً في قرية بالشمال... مكافأة ضخمة لكل من يدلي بمعلومات عنه...»، تذكَّرت

علاقتي القديمة بالرايخ ورجاله فتلبستني الظنون وقلت هنا: يا حامد مقتلك...

* أهلاً بك في بيتك.

كان على ما أعتقد رتبة كبيرة ومهمة، رفعت يديَّ وقلت: لست بتلر يا سيدي.

* أي بتلر... تفضَّل، الرئيس في انتظارك...

خطوت خطوات مرتبكة ودخلت، رأيته جالساً خلف مكتبه كالواقف، نظارته البيضاء على أنفه الطويل وعيناه تُفَلِّيَان أوراقاً أمامه، وقفت بعض الوقت إلى أن انتهى، وما أن شاهدني حتى اندفع كالجبل نحوي:

* بالأحضان يا ريِّس...

تمعَّنت في خلقته وأنا جدُّ مندهش، قلت:

* أشم فيك رائحة الجميل والديك القتيل.

قال بأسى: أنا ثالثهما...

* مَنْ؟؟ الجَمَالُ ولدي!! ما الذي جاء بك إلى هنا وأين أبوك و... و... مكثت في بيته شهراً، كنت خلاله كطيِّب الذكر أبيه الراحل، قال لي:

* يا أبا الجميل أنت أبي ووزيري ومستشاري وعلمُك لا يضاهي، انصحني يرحمك الله...

قلت: يا ابن أخي اتقِ الله في أُمَّتك ونفسك فقد سمعت عنكم كلاماً عجباً...

قال: إشاعات وافتراءات، الأعداء في الداخل والخارج كُثْرٌ، والحزم ضرورة يمليها الظرف حماية للبلاد والعباد، هل شاهدت فيَّ عوجاً؟؟؟

قلت: حاش لله يا ابن أخي، أراك تصل الرحم وتحمي الضعيف وتؤدي الفرائض وتقري الضيف وتطعم البائس الفقير، لكن لا دخان بدون نار، يا بني اختر خلصاءك ومستشاريك من أهل الصلاح والعلم، وابتعد ما استطعت عن بطانة السوء تسلم.

قال: أعدك بذلك.

استأذنته في الرحيل لكنه أبى:

* ستأتي معي إلى المحلَّة، الناس لا يعرفونني.

قلت: النظر كَلَّ والصحةُ لا تسمحْ.

قال: هل أغضبتك؟ لم تكُ ترفض لي طلباً...

قلت: سآتي معك شريطة أن أنزل «شرشابة» بعد الزيارة وأنت معي.

قال: لك ما تشتهي.

ذهبنا... العربة المكشوفة في الوسط مجلوَّة، والدراجات النارية وعربات التابعين من أَمَمٍ وخلف ويسرة ويمنة تزغرد، الجموع على طول الطريق تحيي وتنثر الورد والريحان... قلت: انظر...، الرعية تحبك، ومحبة الناس يا ابن أخي لا عديل لها، فلا تُضَيِّع أجر عامل ولا

تظلم نَفْساً، وحاسب في كل ليلة حساب الملكين لتنام مستراح البال.

قال إبراهيم: كُنَّا قد وصلنا إلى المحطة الأخيرة وسط المحلَّة فأشار الريِّسُ بيد مرتعشة وقال:

هنا كان الملأ يشيرون نحونا ويقولون: من الذي يقف إلى جوار الريِّس حامد؟؟ ـ قالها ثلاثاً ـ ثم سقط مغشيّاً عليه، وضعت على وجهه ورأسه ماءً بارداً حتَّى أفاق، ورجعنا في نفس العربة، دموعه لا تتوقف ولسانه يرتعش وجسده ينتفض كالمذبوح، إلى أن رحل يرحمه الله بعد ثلاث...

قلت لابن يوسف: ولكن الزعيم مات بعد الريِّس، فكيف حمله على يديه مَيْتَاً؟ تهدَّج صوته، وانفتحت شلاَّلات عينيه على مصراعيها، ودخل في دوَّامة الهُذَاء، أشفقت عليه فَسَكَتُّ عن الكلام المباح...



فهرس الموضوعات


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com